﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 206]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين الدَّعوةِ للذِّكرِ ونبذِ الغفلةِ، وبينَ بيانِ حالِ الملائكةِ في كمالِ الذِّكرِ

لَمّا أمرَ بالذِّكرِ في الآيةِ السّابقةِ، والمواظبةِ عليه، وحذَّرَ من الغفلةِ عنهُ؛ بيَّنَ في ختامِ السّورة أنَّ دوامَ الذِّكر بتمامِ الخضوعِ، وكاملِ الخشوعِ والإخباتِ من شأنِ الملائكةِ المقرَّبين، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾: من الكِبْرِ، ومِنَ البابِ الكِبَرُ، وهو الهَرَمُ، خِلاف الصِّغَرِ، يُقالُ: هو كَبيرٌ، وكُبارٌ، وكُبّارٌ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ [نوح: 22]، والكِبْرُ: مُعْظَمُ الأمْرِ، قَوْلُهُ عَزَّ وعَلا: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾ [النور: 11]، أيْ: مُعْظَمَ أمْرِه، ويَقولونَ: كِبْرُ سياسَةِ القَوْمِ في المالِ، فأمّا الكُبْرُ بضَمِّ الكافِ؛ فهو القُعْدُدُ، يُقالُ: الوَلاءُ لِلْكُبْرِ، والكِبْرُ: العَظَمَةُ[1]، والتَّكبُّر هو: التَّعالي على اللّه سبحانه، وهذا كفرٌ باللّه، أو على رسوله، وهذا كفرٌ بالرَّسول، أو على المؤمنين، وهذا هو التكبُّر المألوف بين المسلمين الذين لم يهذِّبوا أنفسَهم، وهي معصيةٌ عظيمةٌ.

2) ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: من التَّسْبيح، وهو تَنْزيهُ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ من كُلِّ سوءٍ، والتَّنْزيهُ: التَّبْعيدُ، والعَرَبُ تَقولُ: سُبْحانَ مِن كَذا، أيْ: ما أبْعَدَهُ. والمعنى المحوريُّ: مخالطةٌ بتمدُّدٍ لما شأنه أن يَغمر – مع عدم الانغمارِ فيه، كهيئة السّابح يمتدُّ بدنًا وسعيًا فوق الماءِ دون أن ينغمرَ، والمعنى الذي ذكرناه يؤخذُ منه التَّعجُّب لغرابة عدم الانغمارِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كبر).

رغم مخالطةِ ما يغمر، وكذلك يؤخذ منه التَّنزيه، من الانبساطِ فوق الماءِ ونحوه دون الانغماسِ فيه، أي من الفَوْقيَّة والعُلوِّ - كما يقال: "تعالى الله"، ومن عدمِ الانغماسِ[1].

3) ﴿يَسْجُدُونَ﴾: من السُّجود، وهو يَدُلُّ على تَطامُنٍ وذُلٍّ، يُقالُ: سَجَدَ؛ إذا تَطامَنَ، وكُلُّ ما ذَلَّ؛ فقد سَجَدَ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الملائكةُ المقرَّبونَ لا يعصونَ اللهَ، بل يسبِّحونَهُ ويعبدونَهُ

إنَّ الَّذين عند ربِّك من الملائكةِ لا يستكبرونَ عن عبادةِ الله، بل ينقادون لأوامرِهِ، ويسبِّحونه باللَّيل والنَّهار، وينزِّهونَهُ عمّا لا يليقُ به، وله وحدَه - لا شريك له - يسجدون[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ عمّا قبلَهُ:

تعليلٌ لما مضى من أمرِ العباد بالذِّكْرِ ببيان أنَّ الملائكةَ يفعلون ذلك

تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ العِلَّةِ لِلْأَمْرِ بالذِّكْرِ، ولِذلك صُدِّرَتْ بـ (إنَّ) الَّتي هيَ لِمُجَرَّدِ الاهْتِمامِ بالخَبَرِ، لا لِرَدِّ تَرَدُّدٍ أو إنْكارٍ؛ لِأنَّ المُخاطَبَ مُنَزَّهٌ عَنْ أنْ يَتَرَدَّدَ في خَبَرِ اللهِ تَعالَى، فحَرْفُ التَّوْكيدِ في مِثْلِ هذا المَقامِ يُغْني غَناءَ فاءِ التَّفْريعِ، والمعنى: الحَثُّ على تَكَرُّرِ ذِكْرِ اللهِ في مُخْتَلَفِ الأحْوالِ؛ لِأنَّ المُسْلِمينَ مَأْمورونَ بالاقْتِداءِ بأهْلِ الكَمالِ مِنَ المَلَأِ الأعْلَى، وفيها تَعْريضٌ بالمُشْرِكينَ المُسْتَكْبِرينَ عَنْ عِبادَةِ اللهِ بأنَّهُم مُنْحَطّونَ عَنْ تِلْكَ الدَّرَجاتِ[4]، ووَجْهُ جَعْلِ حالِ المَلائِكَةِ عِلَّةً لأمرِ النَّبيِّ ﷺ بالذِّكْرِ: أنَّ مَرْتَبَةَ الرِّسالَةِ تُلْحِقُ صاحِبَها مِنَ البَشَرِ بِرُتْبَةِ المَلائِكَةِ، فهذا التَّعْليلُ بِمَنْزِلَةِ أنْ يُقالَ: اذْكُرْ رَبَّكَ؛ لِأنَّ الذِّكْرَ هو شَأْنُ قَبيلِكَ[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سبح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسَّر، ص: 176.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 243/9.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 243/9.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والعدولِ عن لفظِ (الملائكة):

المـؤمـنُ يـترقَّـى بالتَّشبُّهِ بأخلاقِ الملائكةِ، فتسمو روحُهُ وأخلاقُهُ

ما تُؤْذِنُ به الصِّلَةُ من رِفْعَةِ مَنْزِلَتِهم، فيَتَذَرَّعُ بذلك إلى إيجادِ المُنافِسَةِ في التَّخَلُّقِ بأحْوالِهِمْ[1]، والسّياق واضحُ الدَّلالةِ على المقصودين بالتَّوصيفِ، وهم ملائكةُ الملأِ الأعلى، والتَّعبيرُ بالاسمِ الموصول، وهو معرفةٌ، يقومُ مقامَ اسمِ العلمِ الَّذي عرف به هؤلاءِ المخلوقونَ من نورٍ، والَّذين وصفهم القرآنُ بأنَّهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾ [النّحل: 50]، وقيل: إنَّ المقصودَ بهم الَّذين اصطفاهم واختارهم من بين النّاس، وهم المؤمنون الَّذين عرفوا اللّه حقَّ معرفتِه، فعبدوهُ في ولاءٍ وخشوعٍ[2].

دلالةُ الظَّرفيَّةِ في قولِهِ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

القربُ في مدلولِ (عند رَبِّكَ) قربُ مكانةٍ لا قربُ مكانٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ معنى (عند) هنا: دنوُّ الزُّلفةِ، والقربُ من رحمةِ اللّهِ تعالى وفضلِهِ، لتوفُّرهم على طاعتِهِ وابتغاءِ مرضاتِهِ[3]، ولعلَّ المجازَ في العنديَّة يتَّسع ليشملَ خلْقًا آخر، بعضَهم من البشرِ قد سمَوا وعلَوا وارتقَوا، كالأنبياءِ والشُّهداء، حتَّى وردَ الخبرُ عن رسولِ اللّهِ ﷺ أنَّه قال: «أبيت عند ربّي يطعمُني ويسقيني»[4]، و(عند) مُسْتَعْمَلٌ مَجازًا في رِفْعَةِ المِقْدارِ، والحُظْوَةِ الإلَهيَّةِ، فإذا فهِمْتَ السَّعادَةَ الحاصِلَةَ لِلْمَلائِكَةِ بكَوْنِهم عند اللّه؛ فهِمْتَ السَّعادَةَ الحاصِلَةَ لِلشُّهَداءِ بكَوْنِهم عند اللّه، وهذه كَلِماتٌ تَفْتَحُ على العَقْلِ أبْوابَ مَعارِفِ الآخِرَةِ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 243/9.

(2) قال عبد الكريم الخطيب معلِّقًا على هذا الرَّأي الوجيه، ولكنَّه خلاف المشهور: "وهذا المعنى الذي ذهبنا إليه - مخالفين فى ذلك ما أجمع عليه المفسّرون - هو المناسب لسياقِ النَّظم القرآنيِّ، حيثُ كانت الآية السّابقة على هذه الآية دعوة إلى ذكر الله، على تلك الصّورة التي تؤهِّل الذّاكر؛ لأن يكونَ من أهلِ الله، ومن عباده المكرمين.. فهذا الذِّكرُ هو الذي يقرِّب الإنسانَ من ربِّهِ، ويرفعه إلى هذا المقامِ الكريم، وإنَّه لن يرتفع إلى هذا المقام الا من ذكرِ اللهِ هذا الذِّكر، فلا يستكبر عن عبادة اللهِ، ولا يولِّى وجهه إلى غيره، في تسبيح أو سجود". ينظر: عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 556/5.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 193/2، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 730/6.

(4) أخرجه البخاريّ ومسلم، عن أبي هريرة ﷺ، ينظر: ابن الأثير، جامع الأصول، برقم: (4563).

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 428/9.

فائدةُ إضافةِ الظَّرفِ إلى الرَّبِّ وتخصيصه:

إضافةُ الظَّرفِ إلى الرَّبِّ تعظيمٌ وسموٌّ، وإضافةُ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ تشريفٌ

وإضافةُ العنديَّةِ إلى الرَّبِّ توحي بعظيمِ المنزلة، وسموِّ الرُّتبة، وعلوِّ المكانة، وارتفاع الدَّرجة، وإضافةُ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطب فيه تشريفٌ له ﷺ، على رأي من يقول: إنَّ الخطابَ له؛ لبيانِ مكانتِه وإمامتِه، وفيهِ تهييجٌ للمؤمنين على المسارعةِ في العبادةِ، وإلهابٌ لمشاعرِهم نحو التَّرقّي في مصافِّ الَّذين عند ربِّك أيُّها المخاطبُ.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ دونَ مرادفاتِه:

الاستكبارُ من أقبحِ الخصالِ الَّتي تُصيبُ صاحبَها في مقتلٍ

أُريدَ به التَّعْريضُ بالمُشْرِكينَ، وأنَّهُم على النَّقيضِ مِن أحْوالِ المَلائِكَةِ المُقَرَّبينَ، فخَليقٌ بهم أنْ يَكونوا بُعَداءَ عَنْ مَنازِلِ الرِّفْعَةِ[1]، وفيهِ "إشارةٌ إلى أنَّ هذهِ المنزلةَ التّي الَّتي لهم عند اللّهِ، لم تدخلْ عليهم بشيء بشيءٍ من الكبر والإدلالِ على اللّهِ، حيثُ لا متطلَّع لهم إلى منزلة غير تلك المنزلةِ، بل إنَّ ذلك كان داعيةً لهم إلى دوامِ العبادة، ومواصلةِ التَّسبيح، حمدًا للّه على ما هم فيه، وشكرًا له على ما أنعمَ بهِ عليهم، واستدامةً لتلك النِّعمةِ"[2].

نكتةُ استعمالِ صيغةِ الاستفعالِ (الاستكبارِ):

الملائكةُ الأعلونَ لا يستكبرونَ، ومن دونهم أولى بذلك وأجدر

والاسْتِكْبارُ: الامْتِناعُ عَنْ قَبولِ الحَقِّ مُعاندةً وتَكَبُّرًا[3]، وصيغةُ الاستفعالِ هنا تدلُّ على أنَّ المستكبرَ يطلبُ ما ليس له، وفي الحديثِ القدسيِّ: يَقولُ اللّهُ ﷻ: «الكِبْرياءُ رِدائي، والعَظَمَةُ إزاري، فمَنْ نازَعَني شَيْئًا منهما أَلْقَيْتُهُ في جَهَنَّمَ»[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

التَّنويهُ بتواضعِ الملائكةِ، فيه تعريضٌ باستكبارِ المشركينَ

تدلُّ صيغةُ المضارعِ المنفي في قولِه: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ على استمرارِ النَّفي، وتجدُّده، وقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، "ليس المقصودُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 243/9، 244.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 555/5.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(4) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2620).

به التَّنويهَ بشأن الملائكةِ؛ لأنَّ التَّنويهَ بهم يكون بأفضل من ذلك، وإنَّما أريدَ بهِ التَّعريضُ بالمشركين، وأنَّهم على النَّقيضِ من أحوالِ الملائكةِ المقرَّبينَ، فخليقٌ بهم أن يكونوا بعداءَ عن منازلِ الرِّفعة"[1]، وهي المنازلُ الَّتي نالها الملائكةُ بعدمِ الاستكبارِ.

إيثارُ نفي الفعلِ بـ(لا) دونَ غيرِها:

النَّفي بـ(لا) يناسبُ الغرضَ المسوقَ له النَّفي، وهو التَّعريضُ بالمشركين؛ إذْ إنَّ المرادَ هو وصف حالي، لا يمنعُ من استمرارهِ في المستقبلِ، بل إنَّ المدَّ الذي في جِرْم (لا) ليشيرَ إلى أنَّها أدلُّ على دوامِ النَّفي وطولهِ.

الإشارةُ إلى أنَّها أدلُّ على دوامِ النَّفي وطولهِ

فائدةُ قولهِ: ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾:

لمّا كانَ المقصودُ من جملة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ التَّعريضَ بالمشركين كما أسلفنا، وليس وصفَ الملائكةِ بعدمِ الكبرِ فحسب - وإن صحَّ الإخبارُ به عنهم - ، كان قوله: ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ إيماءً إلى فعل هؤلاء المشركينَ من عبادةِ الأصنامِ والعزوف عن عبادةِ ربِّهم جلَّ وعلا.

الإشارةُ إلى أنَّ هلاكَ المشركينَ في عزوفِهم عن عبادةِ ربِّ العالمينَ

دلالةُ المجاوزةِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَنْ﴾:

حرف (عن) يفيدُ المجاوزةَ، ونفيُ الفعل قبلَهُ يشيرُ إلى أنَّهم لم يجاوزوا عبادةَ اللّهِ، ولم يفتروا عن التَّذلُّلِ له سبحانهُ طرفةَ عينٍ، ولم يتعدَّ الفعلُ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في القرآنِ الكريم إلّا بـ(عن)، وجاءَ في موضعين في سياقِ الملائكةِ هنا، وفي قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء: 19]، وجاء الفعلُ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ مُثْبتًا في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: 60]، كما وردَ الفعلُ (يتكبَّرون) متعدّيًا بـ(في) في موضعٍ واحدٍ، وهو قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي

الملائكةُ لم يجاوزوا عبادةَ اللهِ، ولم يفتروا عن التَّذلُّلِ لهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 244/9.

ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: 146]. وتعدَّى الفعلُ (استكبروا) بـ(في) في قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: "عن عبادةِ اللّه، فقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارةٌ إلى قلَّةِ عقلِهم في اسْتكبارِهم؛ لأنَّ من في الأرض أضعفُ أقسام المكلَّفين، ومن في السَّماءِ أقواهم، ثمَّ إنَّ (مَن في السَّماء) لا يستكبرونَ على اللّهِ بالعبادةِ، فكيف (مَن في الأرض)"؟[1]، ولم يتعدَّ الفعلُ (استكبر) بـ(على) في القرآنِ الكريم، وإن جازَ لغةً.

إيثارُ لفظِ (عبادة) دونَ غيرِه كالذِّكرِ في قوله: ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾:

عبادةُ اللهِ سموٌّ روحـيٌّ عظيمٌ، يعلو بصاحبِهِ مكانًا عليًّا

وأوثرَ لفظُ (العبادة) لشمولِهِ نواحيَ الحياةِ كلها، وأنواع الطّاعاتِ الكثيرةِ المتعدِّدةِ، ويدخل فيها الذِّكر وأنواعه دخولًا أوَّليًّا، على اعتبارِ أنَّ العبادةَ تشملُ مسالكَ القربِ من اللّهِ، وطرائق التَّزلُّف إليه، رجاءَ عفوِهِ ورحمتِه، والملائكة يفعلون ذلك شكرًا للّهِ، دونَ انتظارِ مقابلٍ ينتفعونَ بهِ، وفي عبادةِ الملائكةِ نموذجٌ يتجلَّى للبشرِ، كي يضاهوهُ في إدراك بعضِهِ؛ إذ (مالا يُدرَك كلُّهُ، لا يُترَك جلُّهُ، بلْهَ أقلَّهُ).

فائدةُ إضافةِ العبادةِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالةِ:

عبوديَّةُ التَّملُّكِ قد تكونُ للبشرِ، والـعـبـادةُ لا تكونُ إلّا لخالقِ البشرِ

قولُهُ: ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾، لمّا كانتِ العبادةُ لا تنبغي إلّا للّهِ أضيفت إليه تعالى، وجيءَ بالضَّمير؛ لأنَّ العهدَ باسمِ الرَّبِّ قريب، ولدفعِ إيهامِ عنديَّةِ المكانِ، وتصوُّرِ الحضور، فهم مشغولونَ بما أمروا به، لا يلتفتون إلى غيرِه، قالَ تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التَّحريم: 6].

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 355/15.

دلالةُ عطفِ جملة: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ على ما قبلَها:

التَّسبيحُ تنزيهٌ للخالقِ، وتأكيدٌ لـقـيّـومـيَّـتِـه في ملكوتِه

حَسُنَ عطفُ جملةِ: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ على ما قبلَها؛ لأنَّ نفيَ الاستكبارِ يفهمُ منه التَّذلُّل والخضوع وتأدية العبادة على أحسنِ وجهٍ، فكأنَّهُ عطفُ الخاصِّ على العامِّ، ومعناها: "ينزِّهونَهُ عن كلِّ ما لا يليقُ بعظمتهِ وكبريائهِ، وجلالهِ وجمالهِ، من اتِّخاذ النِّدِّ والشَّريك والظَّهيرِ والمساعدِ على الخلقِ والتَّدبيرِ"[1].

العدولُ عن التَّنزيهِ إلى التَّسبيحِ في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾:

التَّسبيحُ ثناءُ اللهِ على نفسهِ بنفسِه، وهو من خصائصِه، فلا يقالُ لغيرِه

التَّسبيحُ: هو التَّنْزيهُ للّهِ تعالَى عَمّا لا يَجوزُ عليه مِن الصِّفاتِ، فجَميعُ ما خَلَقَهُ اللّه مُنَزَّهٌ لَهُ مِن جِهَةِ الدَّلالَةِ عليه، والعُقَلاءُ المُطيعونَ يُنَزِّهونَهُ مِن جِهَةِ الاعْتِقادِ والوَصْفِ لَهُ بما يَليقُ به وتَنْزيهِه عَمّا لا يَجوزُ عليه، وقَوْله تعالَى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يَعْني: صَلاةَ مَنْ يُصَلّي منهم، فاللّه يَعْلَمُها، وقالَ مُجاهِدٌ: "الصَّلاةُ لِلْإنْسانِ، والتَّسْبيحُ لِكُلِّ شَيْءٍ"[2]. والتَّسبيحُ: هو ثناءُ اللّهِ على نفسهِ بنفسهِ، فليسَ ثمَّةَ أحسنُ منهُ، وهو من خصائصِ اللّهِ تعالى، فلا يقالُ لغيره، وأمّا التَّنزيهُ؛ فيقالُ لغيره، ممَّن قد يُتَّهم "والنَّزَه: ظَلَفُ النَّفس عَن المَدانس، يُقالُ: فلانٌ نَزِهُ النَّفسِ ونازهُ النَّفسِ، والمصدر النَّزاهة"[3]، والتَّسبيحُ فيه معنى السِّباحةِ، فكأنَّ المسبِّحَ يَسْبِّحُ في نهرِ العبوديَّةِ بيُسْر، لا يعوقهُ أحدٌ، ولا يعترضُهُ شيءٌ، وهو بتسبيحهِ هذا لا ينفعُ إلّا نفسَه، فاللّهُ مُسَبَّحٌ قبل أن يخلقَ من يُسَبِّحه﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: 83].

إيثارُ ذكرِ التَّسبيحِ دونَ غيرِهِ كالتَّحميدِ والتَّكبيرِ مثلًا:

نلحظُ في اصطفاءِ لفظِ التَّسبيحِ في ختامِ السّورةِ تسريةً عن رسولِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 465/9.
(2) الجصّاص، أحكام القرآن: 424/3.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (نزه).

اللّه ﷻ إذ إنَّه قد أحزنهُ ما يقولونهُ على اللّهِ من افتراءٍ، وشرك، وما يتَّهمونه به ممّا سبق من الآياتِ، فكأنَّهُ يهدهدُهُ بهذا الختامِ الهاديءِ، فهو يطمئنُهُ، ويسكِّن روعَهُ، فلئن كفرَ هؤلاءِ باللّه، وكذَّبوك فثمَّة خلقٌ آخر ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

بـيـانُ تسبيحِ الملائكةِ تسريةٌ عـن رسـولِ اللّهِ ﷺ

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾:

الاستمرارُ والتَّجدُّدُ في التَّسبيحِ، فلا ملَلَ، ولا تعبَ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: 20]، وهذه مسألةٌ موغلةٌ في القدمِ، وهي سابقةٌ لخلق الإنسانِ، لوجودِ الملائكة قبلَهُ، وتأكيدُ ذلك بقولهِ تعالى في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 28 - 29]، وسوف تبقى تسبيحاتُ الملائكةِ مستمرَّةً إلى نهاية الدُّنيا، وذلك أمرُ اللّهِ في الخلق والتَّقديرِ.

التَّسبيحُ باقٍ بلا انقطاعٍ إلى يومِ القيامةِ ممّا يشيرُ بهِ الفعلُ (وَيُسَبِّحونَهُ)

أثرُ الواوِ في قولهِ: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ في المعنى:

عاطفةٌ جملةَ ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ على ما قبلَها، وتأخيرُها يوحي بعلوِّ رتبةِ السُّجودِ، لأنَّ السُّجودَ أرقى ألوانِ العبوديَّةِ، وسببِ مكينٍ، لقربِ السّاجدِ من ربِّ العالمينَ، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ [العلق: 19].

حالةُ السُّجودِ أشرفُ الأحوالِ، وأقربُها إلى اللّهِ المتعالي

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُۥ﴾ على الفعل ﴿يَسْجُدُونَ﴾:

ويختصّونه بالعبادةِ لا يشركونَ بهِ غيرهُ، وهو تعريضٌ بمن سواهم من المكلَّفين[1]، ولَهُ يَسْجُدونَ لِلدَّلالَةِ على الاخْتِصاصِ، أيْ: ولا يَسْجُدونَ لِغَيْرِه، وهذا أيْضًا تَعْريضٌ بالمُشْرِكينَ الَّذينَ يَسْجُدونَ لِغَيْرِه، والمُضارِعُ يُفيدُ الاسْتِمْرارَ أيْضًا[2].

الاخـتـصـاصُ، والـتَّـعـريـضُ بالمشركينَ، ممّا يـبرزهُ بيانُ هذه الآيةِ

(1) الطيّبيّ، فتوح الغيب: 730/6.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 244/9.

إيثارُ استعمالِ السُّجودِ دونَ غيرِهِ من ألوانِ العبادةِ:

ردُّ العجزِ على الصَّدرِ، ليُعلنَ في نهايةِ السّورةِ فوزَ الملائكةِ السّاجدينَ

في ذكرِ فعلِ السُّجود ليكونَ خاتمةَ كلماتِ السّورةِ إشارةٌ لطيفةٌ إلى مطلعِ السّورة من قصَّةِ إبليسَ عندما أبى واستكبر، ولم يكن من السّاجدينَ، ففيه ردُّ العجزِ على الصَّدرِ؛ ليُعلن في نهايةِ السّورة فوزَ الملائكةِ السّاجدين، والعبّادِ الطائعين، وخسرانَ إبليسَ ومن معهُ أجمعينَ.

دلالةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾:

سجودُ الملائكةِ متناغمٌ مع تسبيحِ الكونِ كلِّه للهِ

يدلُّ المضارعُ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، فهم مع إخلاصِهم العبادةَ، وإتقانِهم لها لا ينقطعون، ولا يفْتُرون، وقد وصفَ اللّهُ تعالى حالَهم من تواضعِهم وإدمانِهم للعبادةِ والتَّسبيح والسُّجود، وفي الحديث: «أطَّت السَّماء، وحقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضعُ شبرٍ إلّا وفيه ملكٌ قائم أو راكعٌ أو ساجدٌ». ورأسُ الآيةِ موضعُ سجدةٍ[1].

علاقةُ ختامِ السّورةِ بأوَّلِها في خطاب النَّبيِّ الأكرمِ وتوجيهِهِ وتثبيتِهِ:

خُتِمَتِ السّورةُ بما بُدِئَت بهِ، بأنَّ مهمَّةَ الرَّسولِ التَّبليغُ والاتِّباعُ

بهذهِ الآياتِ تختمُ سورةُ الأعرافِ، كما بدأت، فتلتقي بالنَّبيِّ الكريم لقاءً مباشرًا، بعد أن كان مفتتحُها ذلك الخطابَ الموجَّهَ إلى النَّبيِّ بأن يلقى قومَهُ، ويواجههم بآياتِ ربِّه، وبالكتابِ الَّذي نزَّلَهُ عليه، وإن كان في ذلك القطيعةُ بينه وبين أهلِه؛ إذْ لا مهادنةَ في الحقِّ، ولا حسابَ لصلاتِ القرابةِ والصَّداقةِ فيه... ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هكذا بدأتِ السّورةُ، وبهذا تختتم[2].

وتختمُ سورةُ الأعرافِ بذكرِ قضيَّةٍ كُبرى ينبغي أن يعرفَها النّاس، وهي أنَّ الوحيَ يتنزَّلُ بأمرِ ربِّك، وأنَّ مهمَّةَ الرَّسولِ ﷺ التَّبليغُ واتِّباع الوحي بما فيه من حججٍ وهدى ورحمة، وأنَّ الواجبَ مع القرآنِ الكريم الاستماعُ والإنصاتُ؛ حتَّى يؤخذَ بهمَّةٍ، وينالَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 495/2.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 544/5.

المتلقّي رحمةَ الله، وأن يتحصَّنَ الإنسانُ بذكرِ ربِّه، وألّا يقعَ في دائرةِ الغفلةِ، وأنَّ ما يؤدّيه المرءُ من وجوهِ العباداتِ، فإنَّما هو لخيرِه وسعادتِه، فالنّاسُ في أشدِّ الحاجةِ إلى عبادتهم للهِ سبحانه، وهو الغنيُّ عنهم[1]، وهذا التَّوجيهُ يذكِّرنا بما وردَ في مطلع السّورة، فهو يشي بثقلِ عبْءِ التكليف بدعوة النّاس، وبضرورةِ الصَّبرِ، وضرورةِ شقّ الطريق وفق النهج السليم.

لطيفةُ كونِ آخرِ الأعرافِ أوَّلَ سجدةٍ من سجداتِ القرآنِ:

وسيلةُ الوصولِ إلى منزلةِ (الّذينَ عندَ ربِّكَ)، السُّجودُ للهِ المعبودُ

هذه أوَّلُ سجدةٍ في القرآنِ ممّا يشرعُ لتاليها ومستمعِها السُّجودُ بالإجماع[2]، وكانت آخرُ الأعرافِ هي أوَّل سجدةِ تلاوةٍ من سجداتِ القرآنِ بترتيبِ المصحفِ الشريفِ للإشارةِ إلى أنَّ الوصولَ إلى منزلةِ ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ هو السُّجودُ للهِ تعالى، وصحَّ من حديث أبي هريرةَ مرفوعًا بلفظِ: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه، وهو ساجدٌ، فأكثروا الدُّعاءَ»[3]، ولذلك كانت آخرُ سجدةٍ قولَهُ تعالى لخاتم النَّبيّين ﷺ: ﴿لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: 19].

وجهُ مجيءِ آيةِ السُّجودِ خبرًا:

يريدُ اللهُ أن يسجدَ النّاسُ له بحبٍّ وألّا يُساقوا له بالسَّوطِ

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾، ليس في الآيةِ أمرٌ بالسُّجودِ، بل إنَّ مُقْتَضَى السَّجْدَةِ هُنا أنَّ الآيَةَ جاءَتْ لِلْحَضِّ على التَّخَلُّقِ بأخْلاقِ المَلائِكَةِ في الذِّكْرِ، فلَمّا أخْبَرَتْ عَنْ حالَةٍ من أحْوالِهم في تَعْظيمِ اللهِ، وهو السُّجودُ للهِ، أرادَ الرَّسولُ ﷺ أنْ يُبادِرَ بالتَّشَبُّهِ بهم تَحْقيقًا للمقصدِ الَّذي سبق هذا الخبر لِأجْلِه[4]، وما أجملَ أن يسجدَ العبدُ لربِّه طائعًا مُتَضرِّعًا مُحِبًّا، فيقتربَ من الجمالِ والجلالِ والكمالِ!

(1) محمد رأفت سعيد، تاريخ نزول القرآن، ص: 290.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 249/5.
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (482).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 244/9.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستكبارُ والتَّكبُّرُ:

الاستكبارُ ادِّعاءُ الكِبرِ من غيرِ استحقاقٍ

الاستكبارُ: طلبُ الكبرِ من غيرِ استحقاقٍ، والتَّكبُّر: قد يكون باستحقاقٍ؛ ولذلك جازَ في صفة اللّهِ تعالى: المتكبِّر، ولا يجوزُ: المستكبر[1]، وفرقُ التَّكبُّرِ عن الكِبر هو: أنَّ الكِبْرَ مجرَّدُ تعاليه على غيرِهِ في نفسِه، أمّا التَّكبُّر؛ فهو: إظهارُ الكِبْرِ وإبرازِهِ[2].

التَّكبُّرُ إظهارُ الكبرِ باستحقاقٍ

التَّسبيحُ والتَّنزيهُ:

التَّسبيحُ خاصٌّ باللّه تعالى

التَّسبيحُ خاصٌّ باللّهِ تعالى، والتَّنزيهُ تبعيدٌ، ويطلقُ على المخلوقِ

التَّسبيحُ خاصٌّ باللّهِ تعالى، وفيه معنى التَّعجب؛ ولذلك ورد أنَّه ﷺ كان يقول: سبحانَ اللّهِ عند التَّعجُّب[3]، ووجهُ إطلاقِ هذهِ الكلمةِ عند التَّعجُّبِ هو أنَّ الإنسانَ عند مشاهدةِ الأمرِ العجيبِ الخارجِ عن حدِّ أمثالِهِ يستبعدُ وقوعَهُ، وتنفعلُ نفسُهُ منه، كأنَّه استقصرَ قدرةَ اللّهِ؛ فلذلكَ خطرَ على قلبه أن يقولَ قدرَ عليهِ وأوجدَهُ، ثمَّ تدارك أنَّه في هذا الزَّعمِ مخطئٌ، فقال: سبحانَ اللّهِ تنزيهًا للّه تعالى عن العجزِ عن خلقِ أمرٍ عجيبٍ، يستبعدُ وقوعَهُ لتيقُّنِه بأنَّهُ تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ[4]، والتَّنزيهُ تبعيدٌ، يدُلُّ على بُعْدٍ في مَكانٍ وغَيْرِه، ويطلق على المخلوقِ، يقالُ: رَجُلٌ نَزيهُ الخُلُقِ: بَعيدٌ عَنِ المَطامِعِ الدَّنيَّةِ[5].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 49.

(2) محمّد نصر، فصل الخطاب في الزّهد والرّقائق والآداب: 441/6.

(3) كما في حديث أبي هريرة ﷺ، أنّ النبّيّ ﷺ لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب، فانخنس منه، فذهب فاغتسل، ثمّ جاء، فقال: «أين كنت يا أبا هريرة؟»، قال: كنت جنبًا، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة، فقال: «سبحان الله، إنّ المسلم لا ينجس». أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (279).

(4) حقّي، روح البيان: 64/4.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزه).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»